(٨) عتبة الغلام[١]

ذِكر عتبة الغلام رحمة الله عليه:

كان مقبولاً حميدَ الخصال، وكان من تلاميذ الحسن البصري رحمه الله، وكان يمرُّ مع الحسنِ في بعض الأوقات في ساحل دجلة، فشرعَ يمشي على الماء، وقال للحسن: يا شيخُ، أنت تعملُ بما أمرَ الله منذ ثلاثين سنة، وأنا أعملُ بما رضي الله به في هذه المدة.

وهو إشارةٌ إلى مقام التسليم والرضا[٢].

قيل: كان سببُ توبته أنّه مرَّ بامرأةٍ في ابتداء حاله، فأحبَّها، وبعثَ إليها، وأخبرها عن الحال، قالت: أيَّ عضوٍ من أعضائي استحسنت؟ قال: العينين. فقلعتِ المرأةُ عينيها في الحال، ووضعتهما في طبقٍ، وبعثَتْ بهما إلى عتبة، وقالت: ما نظرتَ إليه، فانظرِ الآن إليه. فحين رأى عتبةُ الحالَ استيقظَ من الغفلة، وتاب إلى الله تعالى، ولازم مجلس الحسن البصري رحمه الله.

وكان يكتسبُ لأجلِ سدِّ الجوع، وسترِ العورة، وكان يشتري شيئًا من الشعيرِ ويطحنه، ويندّيه بالماء ويُنشّفه بالشمس، وكان يأكلُ منه في كلِّ أسبوعٍ قدرًا يُقيم ظهره، ويشتغلُ بعبادة الله تعالى، وكان لا يتناولُ غيرَه أبدًا.

وقال: أستحيي من الكرام الكاتبين أن أدخل المبرزَ في الأسبوعِ أكثر من مرة حُكي أنه رُئي عُتبةُ واقفًا في مكانٍ، ويتصبَّبُ منه العرق، قيل: كيف

---

(١) مشاهير علماء الأمصار ١٥٢، الثقات لابن حبان ٧/ ٢٧٠، حلية الأولياء ٦/ ٢٢٦، صفة الصفوة ٣/ ٣٧٠، المختار من مناقب الأخيار ٣/ ٥٤٨، سير أعلام النبلاء ٧/ ٦٢، روض الرياحين ١٠٣ (الحكاية ٢٩)، طبقات الشعراني ١/ ٤٧، طبقات الصوفية ١/ ٣٦٤.

(٢) انظر الحاشية(١) صفحة ٨٦، والخبر فيها.

حالك؟ قال: في الابتداء جاءَ إليَّ ناسٌ أضياف، وأطعمتُهم ما رزقَ الله تعالى، ثم أخذتُ قليلاً من تراب هذا الحائط، فغسلوا به أيديهم، مع أنّي قد استبرأتُ من صاحب الحائط، وهو أبرأني، وجعلني في حلٍّ من ذلك، ومتى أصلُ إلى هذا الحائط في مروري أعرقُ من الخجلِ حتى يتقاطرَ العرقُ منّي

قيل لعبد الواحد بن زيد: هل رأيتَ أحدًا اشتغلَ بنفسه عن الخلق؟ قال: أعرفُ شخصًا على هذه الصفة، والساعةَ يجيء إلينا. فما مضى زمانٌ إلاّ دخل عتبة، فقالوا له: من رأيت في الطريق؟ قال: ما رأيتُ أحدًا. والحالُ أنَّ طريقه كان على السوق، وهذا لغاية استغراقه في نفسه.

ونقل أنه ما كان يتناولُ طعامًا ولا شرابًا كما هو عادة الناس، فقالت له أُمُّه: ارفقْ بنفسك، واطلبْ في بعض الأوقات راحةً. فقال: إنّي أطلبُ راحتَها، وإنّي أحتملُ مدةً يسيرةً هذه المشقَّةِ حتى تبقى نفسي في نعيمٍ لا يزول

نقل أنه ما نامَ في ليلةٍ من الليالي، وكان يقول: إن عذّبتني فإنّي أُحبُّك[1]، وإن عفوتَ عنّي فإنّي أحبُّك. فسُئل عن سبب ذلك، قال: رأيتُ حوراءَ من الحُور في المنام، وقالت: يا عتبة، أنا أعشقُكَ، فلا تفعلْ شيئًا تُفارقني به. فقلت لها: أنا طلّقتُ ما سوى الحقِّ طلاقًا لا رجوع فيه.

ونقل أنه جاء إليه رجلٌ، وكان هو في البيت، فقال له: يا عتبة، الناسُ يسألوني عنك وعن أحوالك، فأرني شيئًا أُخبرهم به. قال: سل ما هو مطلوبك؟ قلت: أشتهي الرُّطبَ. وكان فصل الشتاء، قال لي: خذ، وناولني سلَّةً مملوءة من الرطب.

ونقل أن محمد [بن] السماك وذا النون المصري كانا عند رابعةَ رحمهم الله إذ دخل عليهم عتبةُ، وعليه قميصٌ جديد متبخترًا، قال محمد [بن] السماك: ما هذه المشية؟ قال عتبة: كيف لا أتبخترُ واسمي غلامُ الجبار! قال هذه الكلمة ووقع ميتًا، ثم رأوه بعد موته قد اسودَّ نصفُ وجهه، قيل له: ما سببُ هذا؟

---

(١) في (أ): فإني محبُّكَ.

قال: كنتُ ذاهبًا إلى مجلس الأستاذ، رأيتُ في الطريق غلامًا أمردَ، نظرت إليه، ثم غمضتُ عيني، فالله تعالى رزقني الجنَّةَ، وأُمرتُ أن أدخلها، وكان العبورُ على جهنم، فخرجتْ منها حيَّةٌ، ونفختْ في وجهي، فاسودَّ نصفُ وجهي، ثم قالت: نفخةٌ بنظرة، فلو نظرتَ أكثرَ عملنا معك أكثر؛ لكنَّ هذا جزاؤك.

اللهم أَرنا الحقَّ حقًّا وارزقنا اتباعًا، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابًا له، والله أعلم.

* * *